رأي

بقلم
د. ايلي جرجي الياس*

للوصل همزة... بين كييف وغزّة!

للوصل همزة، واكثر من همزة... بين كييف وغزة! وكأن العالم عاد 75 سنة الى الوراء: نجح الرئيس الروسي فلاديمير بوتين في تحقيق بعض ما اراده الروس من حملة اوكرانيا التي بدأت يوم 24 شباط 2022، لكن التمويل الاميركي والغربي اللامحدود لاوكرانيا جعل الحرب مفتوحة والتخوف من اندلاع الحرب العالمية الثالثة قائما وجديا. فجاءت حرب غزة التي اندلعت يوم 7 تشرين الاول 2023 اثر عملية طوفان الاقصى البطولية، لتسرق الاضواء من كييف دفعة واحدة، وتحوّل الدعم الاميركي من الكيان الاوكراني المشتت الى الكيان الاسرائيلي المهدد. معركة غزة سمحت للفلسطينيين بتصور الحلم قريبا: حل الدولتين من جديد، وضمنا قيام الدولة الفلسطينية السيدة الحرة المستقلة وعاصمتها القدس الشريف حكما.

ماذا عن المستوطنات وتقلص الكيان الاسرائيلي؟ وما هو المقابل المحتمل في حال تم ذلك؟ يتم تزيين الحلم التاريخي القديم عند نهاية الحرب العالمية الثانية، والمتجدد، بدولة قومية يهودية ثانية مفترضة على البعض المستقر من اراضي اوكرانيا الغارقة في حربها الطويلة. هكذا يفهم الترابط بين الحربين في اوكرانيا وغزة تمددا، وربما حتى النهاية المتزامنة، ويتم تقدير بطولة المقاومة الفلسطينية الباسلة، والهجرة - المفاجأة المتفاقمة لليهود نحو كييف.

بعد مرور شهر ويزيد على الهجوم الاسرائيلي القاسي والشامل على قطاع غزة، اثر العملية الفلسطينية البطولية في غلاف غزة يوم 7 تشرين الاول 2023، وضمنا الهجوم الاسرائيلي البري، لم يتغير الامر كثيرا على ارض المعركة، فالمقاومة الفلسطينية سليمة وقادرة على المواجهة الطويلة. الا ان الاسرائيليين المتفاخرين بقدراتهم الجوية الفائقة والمدعومين من الاميركيين والغربيين، يرغبون انتقاما في تسوية شمال غزة بالارض ولو ادى ذلك الى قتل اسراهم لدى حماس، وهذا ان دل على شيء فعلى الاضطراب والتشتت في سلطة القرار الاسرائيلي والصراع المتفاقم بين رئيس الحكومة بنيامين نتنياهو وقيادات الجيش والاستخبارات.

ورغم القتل العشوائي للمدنيين وخصوصا النساء والاطفال، واستهداف المستشفيات كما حدث بالنسبة الى مأساة المستشفى المعمداني، والكنائس والمساجد، وما ادى الى ارتفاع حاد في معدل الوفيات وانخفاض في معدل الولادات وارتفاع في معدلات الهجرة والنزوح، لا تزال المقاومة الفلسطينية صامدة والشعب الفلسطيني في غزة والضفة شامخا، مسنودا الى دعم عربي شعبي ومقاوم جارف، خصوصا في الجنوب اللبناني ارض المقاومة والرجاء والعطاء، وراغبا في المقاومة هذه المرة حتى تحقيق حلم الدولة الفلسطينية.

في المقابل، تستمر المواجهات بين روسيا واوكرانيا، والتي بدأت بالهجوم الروسي يوم 24 شباط 2023، وهو ما عرف بالهجوم الاستباقي تحسبا لتحول اوكرانيا قاعدة لليمين المتطرف العالمي، متقدمة لمصلحة حلف شمال الاطلسي الذي يدور في الفلك الاميركي وهو الخصم الاول للاتحاد الروسي، حسب خطابات الرئيس الروسي فلاديمير بوتين عشية اندلاع الحرب المباشرة بين الطرفين المعنيين وغير المباشرة بين موسكو وواشنطن.

وفي حين يمكن تقدير الموقف مؤخرا عن استمرار العملية العسكرية الروسية الاستراتيجية في اوكرانيا، حيث يحبط الجيش الروسي وبشكل رئيسي محاولات القوات الاوكرانية المستميتة لاختراق دفاعاته على مختلف الجبهات، مكبدا اياها خسائر فادحة بالعتاد والارواح، يشير الرئيس بوتين الى ثبات الموقف الروسي حتى تحقيق النصر الحاسم والفاصل. وقد تكرس الوجود الروسي في اوكرانيا بحكم العمليات الحربية المتواصلة حيث ضمت روسيا بالفعل ما اعلنه الرئيس الروسي سابقا، يوم 30 ايلول 2022، ان مناطق لوغانسك ودونيتسك وزاباروجيا وخيرسون الاوكرانية باتت روسية الى الابد.

وبينما نبه الرئيس الاوكراني فولوديمير زيلينسكي، وبشكل مباشر الى ان اوكرانيا يجب ان تستعد لضربات روسية خطيرة، تطال البنى التحتية الاوكرانية شتاء 2023-2024، مشيرا الى احتمال تصاعد هذه الضربات وتطورها، فيما يتولى الرئيس الروسي السابق دميتري ميدفيديف ارسال رسائل تحذيرية وتهديدية مبطنة ومرمزة ومتتالية الى الاميركيين ودول اوروبا الغربية المتورطة في دعم اوكرانيا خصوصا، بعدما استوعبت روسيا تجربة مجموعة فاغنر العسكرية وقائدها رجل الاعمال يفغيني بريغوجين الذي انقلب على خيارات الكرملين ومن ثم قضى في حادث طائرة في روسيا، وخف التمويل الاميركي والاطلسي لاوكرانيا على حساب اسرائيل

بسبب حرب غزة مما اغضب فولوديمير زيلينسكي. وتفاقم الخلاف بين زيلينسكي نفسه وبعض كبار القادة العسكريين والاستخباريين الاوكرانيين، بات مأزق انهاء الحرب حاضرا بقوة، والبحث عن نهاية تكرس الانتصار الروسي الثابت ولو الجزئي دون هزيمة مطلقة وحاسمة لاوكرانيا في المقام السياسي والاستراتيجي الاول.

وفي حين استند الكيان الاسرائيلي الى الدعم المالي والعسكري الاميركي والغربي اللامحدود، الا ان التداعيات المالية والاقتصادية على هذا الكيان كانت خطيرة للغاية، فقد راكم ديونا تناهز 8 مليارات دولار منذ بدء حرب غزة، وقد اشارت وكالة بلومبرغ الاميركية الى ان هذه الحرب تحديدا تكلف الاقتصاد الاسرائيلي نحو 260 مليون دولار يوميا، وهذا رقم كارثي فاق توقعات الخبراء الاسرائيليين والدوليين، كما ذكرت صحيفة فايننشال تايمز الاميركية ايضا، ان الكيان الاسرائيلي اقترض مليارات الدولارات لتمويل حربه الطويلة الامد على قطاع غزة، واضطر تاليا الى دفع تكاليف اقتراض مرتفعة للغاية لانجاز تلك الصفقات.

هذا الانهيار في الرؤية المالية الاسرائيلية، ساهم في ثبات الفلسطينيين الذين لا يمكن لهم بعد كل تضحياتهم ان يخسروا شيئا، بل بصمودهم لعلهم يربحون كل شيء وانبثاق استقلال فلسطين اولا. فقد اعرب الرئيس الاوكراني زيلينسكي، في خطابات مباشرة له، عن خشيته الكبيرة من ان تؤدي الحرب في قطاع غزة بين اسرائيل وحماس الى حرف انظار المجتمع الدولي عن الغزو الروسي لبلاده، وتخفيض المساعدات المالية والعسكرية لبلاده، متهما الكرملين بتوفير الدعم لحماس، وعلى سبيل المثال لا الحصر، اكد زيلينسكي من جهة اخرى، ان شحنات قذائف المدفعية الى بلاده انخفضت تباعا وبشكل خطير، منذ اندلاع حرب غزة، ما يعزز فرص الترابط بين الحربين، ويجعل موسكو في موقع الرابح الاول.

وبينما تتشبث المقاومة الفلسطينية بمعركة غزة الكبرى من دون وجود حلول بديلة ومحتملة، وبعد سقوط احتمالات الترانسفير بسبب العناد المصري التاريخي والرفض الاردني الدائم، ستقتنع اسرائيل اخيرا ان حل الدولتين هو الفرصة الوحيدة المتاحة لانهاء الحرب. يرى الاوكرانيون ان نهاية الحرب اصبحت ضرورية، لئلا يتوسع الروس الى مناطق اكثر مما رغبوا به في اوكرانيا، وكي لا تفتح الحرب المستمرة شهية البولونيين التاريخية في اتجاه المناطق الاوكرانية الحدودية. وبين بين، يستيقظ حلم الدولة القومية اليهودية الثانية في اوكرانيا، المحددة على مساحة صغيرة من اوكرانيا، والمستقلة ذاتيا او بشكل كامل، والتي وافقت عليها الوكالة اليهودية العالمية في نهاية الحرب العالمية الثانية واحبطها الزعيم السوفياتي جوزف ستالين، من سباته، كحل بديل عن المستوطنات ومساهم اساسي في تعزيز الفرص لانهاء الحربين اللتين باتتا تضمان الكثير من النقاط المشتركة، وبشكل متزامن وفي مدى منظور.

تعزز فرص الحل للحرب الروسية - الاوكرانية، واحتمالاته المستقبلية، ضم المناطق التي سيطر عليه الروس الى الاتحاد الروسي، في مقابل انبثاق الوطن اليهودي المحدد في اوكرانيا ذات حكم ذاتي او كامل، بينما تبقى سائر اوكرانيا في اطار دولة مستقلة على تفاهم مع الروس ولو بالحد الادنى.

لقد استغل الروس حرب غزة وانشغال العالم الغربي بها خير استغلال، لترسيم المنطقة الروسية المطلوبة من الكرملين داخل اوكرانيا وتمكين الجيوش الروسية من السيطرة الكاملة والحاسمة عليها، في مواجهة الهجوم الاوكراني المضاد والذي فشل بالفعل. لكن في المقابل، في مثال صريح حول دور الديموغرافيا في التغييرات الجيوستراتيجية، صرحت الوكالة اليهودية العالمية انه بين 1 كانون الثاني و1 كانون الاول 2022، بدافع الظروف المالية وبشكل خاص اندلاع الحرب الروسية - الاوكرانية، وصل 37364 مهاجرا من روسيا و14680 من اوكرانيا، الى الكيان الاسرائيلي، اي ما مجموعه 52044 مهاجرا يهوديا، وهو رقم قياسي. بينما بعد اندلاع معركة غزة والتي بدأت تتشابه في تجلياتها مع معركة ستالينغراد التاريخية خلال الحرب العالمية الثانية والتي غيرت مسارات تلك الحرب الكبرى، بدأت هجرة يهودية معاكسة من الكيان الاسرائيلي ومن اوروبا الشرقية في اتجاه مناطق آمنة في اوكرانيا من المفترض ان تقع ضمن الكيان القومي اليهودي الثاني المفترض هنالك.

ادركت شعوب العالم قبل الحكام والحكومات، ان الحرب تؤجج مشاعر الكراهية والضغينة والبغضاء، اكثر ما تفيد وتنهي الازمات، وان الحروب باتت طويلة وشاقة ومكلفة وبلا جدوى، فكانت التحركات الشعبية عبر العالم الداعمة للسلام وللحق الفلسطيني المقدس، المثل والمثال. لا بد تاليا، على ضوء حرب غزة الاخيرة، من انجاز وتحقيق وتوثيق الدولة الفلسطينية وعاصمتها القدس الشريف، وذلك تقديرا للتضحيات العظيمة والمتواصلة للشعوب الفلسطينية والعربية.

---

* باحث استراتيجي واستاذ جامعي